الكبرياء

"المصدر: "النهار 00:00 | 28-12-2021

يقال أنّه من الأفضل عدم الإشادة بالذات كي لا يقع الإنسان في فخ الكبرياء بل التحلّي بالتواضع كي يعيش ببساطة. عندما يعتقد الإنسان أنّه أفضل من البقيّة ينغلق على ذاته ويرفض قيم الآخرين ويفتح الباب أمام الأحكام المسبقة والتمييز العنصري إلخ.

نتكلّم اليوم عن النرجسيّة أكثر ممّا نتكلّم عن التكبّر. لا شك أنّه يلزمنا الإهتمام بذواتنا والوثوق بقدراتنا، ولكن علينا التخلّص من النرجسيّة غير الجيّدة وهي الكبرياء، كي لا نتباهى بأنّنا أكبر ممّا نحن عليه. نَغرق في النرجسيّة في حين أنّنا قادرون على الإنفتاح على الآخر وعلى حبه. فبدل أن نجعل الحب الذي فينا قادراً على تخطي الذات، نحصر ذواتنا في مساحة ضيّقة، ونخسر انفتاحنا على الآخر. هل نريد بالفعل أن نكذب على ذواتنا ونعيش في الأوهام وكأنّنا محور كلّ شيء أم أنّنا نريد أن نقتنع بوجود الآخر في حياتنا وبقدرته على مساعدتنا على عيش إنسانيّتنا؟

يعتقد الإنسان المتكبّر أنه سبب الأحداث الجيّدة التي تحصل وأنّه دائماً مصدر كلّ ما هو أفضل، في حين أنّه لا يمتلك دائماً القدرة على رؤية الأمور في إطارها الصحيح، وهذا يعود إلى جهله لذاته. إنّ حبه الواسع لذاته يجعله يعتقد أنّه سبب وجوده، في حين أنّه بتواضعه قادر أن ينظر إلى ذاته بكلّ جديّة وبكلّ واقعيّة بعيداً عن أيّة محاولة لتعظيمها أو لتهشيمها. بالكبرياء يتعزّى الإنسان لأنّه أفضل من الشخص الذي هو عليه بالفعل ويتمنّى أن يراه الآخرون كذلك. لا يحتاج الشخص المتكبّر إلى موافقة الأشخاص على ما هو عليه. فهو يحب ذاته إلى حدّ أنّه ينفي أحياناً وجودهم ويبالغ في تعظيم ذاته لدرجة أنّه لا يحتاج إلى السيطرة على الآخر وإجباره على الإعتراف به. هذا لا يعني أنّه لن يحتاج إليه أبداً، لأنّه، وهو المبالغ بتقدير ذاته والراغب بالسيطرة على الآخر، بحاجة إلى أن يراه الآخرون قويّاً. صحيح أنّه لا يشكّ بنفسه وهو أكيد من ذاته ولكنّه بحاجة إلى الآخر لأنّه يدفعه إلى المبالغة بتقدير ذاته أمامه. لا يمكن للشخص المتكبّر أن يكتفي بهذه الثقة التامّة بذاته وبجماله وبقدراته، إنّه بحاجة إلى ان يُخرج كبرياءه إلى العلن ويُعلنه من خلال الآخر.

عندما يريد الإنسان أن يكون أساس حياته واستقراره، يعيش في حالة لا أمان ويشعر أنّه ضعيف ومتروك لذاته، ويخاف أن يضيع، فيكوّن في داخله صورة عن ذاته كما لو أنّه مصدر كلّ شيء في حياته. يأتي الكبرياء كتعزية له على غياب الأمان والرخاء وعلى الخوف من أن يُترك لوحده. يرفض المتكبّر فكرة أنّ كيانه معطى من آخر كهبة ولا علاقة له في أساسه، فيحاول أن يكون قويّاً، لكنّه

يستسلم للضعف، الذي لا يقبل به أصلاً، لأنّه مدعوّ للعيش معه كي يتابع بحثه واكتشافه لحقيقة إنسانيّته والذي لا يمكن أن يتمّ إلا مع الآخر. هذه حال كلّ واحد منّا، عندما يقطع ذاته عن المصدر يجد نفسه بحاجة إلى أن يبحث عمن يحبه لأنّه لا يمكنه أن يعيش بدون حبّ الآخر. فعندما يريد أن يكون هو المصدر يرفض المصدر الأساسي الذي هو اللّه ويحرم ذاته من الذي يحبه لذاته بدون شروط. ما ينقص المتكبّر هو القبول بحقيقة أنّ هناك من يحبه لذاته.

لا شك أنّ الإنسان قادر على الدفاع عن هويته الخاصة دون القضاء على الآخر وتحطيمه وتهشيمه. لأنّ إستمراره بعيش التكبّر كمن يقول: "لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله، وهو أنا. ولكي أحافظ على وجودي، عليّ أن أبقى بصراع مع الآخر، وأقضي عليه كي أبقى وأستمر. أريد أن أبرز ذاتي من خلال المواجهة. لأنّي لا أفرض هويّتي إلا إذا واجهت الآخر، الذي يملك أكثر منّي وعليّ أن أجرده من كلّ ما لديه". يحب المتكبّر ذاته لدرجة أنّه يرى الآخر صغيراً. وبما أنّه يركض وراء الأنا، يصبح الآخر منافساً له، عليه كرهه ومواجهته والسيطرة عليه للقضاء عليه.

يأتي الحلّ بالقضاء على الأنا الفارغة التي تقتل الإنسان. فهو مدعو ليكون موجوداً بالفعل لذاته وللآخر وعندها يمكنه الذهاب نحو اللّه مصدر وجوده وواهب كيانه. في عصرنا الحالي، يُطلب منّا أن نفرض ذواتنا، أن نواجه، أن نبرز قدراتنا، مما يجعلنا بحالة توتّر مستمرة كي نبقى موجودين في حقل العمل وفي العلاقة مع الآخرين.

إنّ الآخر موجود وطرق ملاقاته ممكنة ومجالات العيش بسلام معه واسعة. على المتكبّر أن يتدرّب على طلب مساعدة الآخر ونصيحته، وأن يفهم أنّه ليس متروكاً لذاته ويعترف أنّه ليس لوحده وأنّه من غير الممكن أن يصنع الآخر على صورته. فهو غير قادر على السيطرة على كلّ شيء وعليه أن يقبل بمحدوديّته كي يتمكّن من قبول الآخر ليتقدّم بشكل أفضل في الحياة. فحبه لذاته مهمّ، شرط أن لا يكون سبيلاً لتحقير الآخر. من لا يقبل المساعدة ويعتقد ذاته دائماً على حق ويحاول أن يجعل من ذاته محور كلّ شيء لا يمكنه أن يكتشف غنى الآخر الذي يعود بالخير عليه.